تفسير ابن كثير

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحا عليه السلام لم يرسل بعده رسولا ولانبيا إلا من ذريته وكذلك إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن لم ينزل من السماء كتابا ولا أرسل رسولا ولا أوحى إلى بشر من بعده إلا وهو من سلالته كما قال تعالى في الاية الأخرى : { وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب } حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم الذي بشر من بعده بمحمد صلوات ا وسلامه عليهما ولهذا قال تعالى : { ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل } وهو الكتاب الذي أوحاه ا إليه { وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه } وهم الحواريون { رأفة } أي رقة وهي الخشية { ورحمة } بالخلق وقوله : { ورهبانية ابتدعوها } أي ابتدعها أمة النصارى { ما كتبناها عليهم } أي ما شرعناها لهم وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم .

وقوله تعالى : { إلا ابتغاء رضوان ا } فيه قولان (أحدهما) أنهم قصدوا بذلك رضوان ا قاله سعيد بن جبير وقتادة (والاخر) ـ ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان ا وقوله تعالى : { فما رعوها حق رعايتها } أي فما قاموا بما التزموا حق القيام وهذا ذم لهم من وجهين (أحدهما) ـ الابتداع في دين ا مالم يأمر به ا و (الثاني) ـ في عدم قيامهم بماالتزموا مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى ا D وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا إسحاق بن أبي حمزة أبو يعقوب الرازي حدثنا السري بن عبد ربه حدثنا بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان عن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد ا بن مسعود عن أبيه عن جده ابن مسعود قال : قال لي رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [ياابن مسعود] قلت : لبيك يارسول ا قال : [هل علمت أن بني إسرائيل افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة ؟ لم ينج منها إلا ثلاث فرق قامت بين الملوك والجبابرة بعد عيسى ابن مريم عليه السلام فدعت إلى دين ا ودين عيسى ابن مريم فقاتلت الجبابرة فقتلت فصبرت ونجت ثم قامت طائفة أخرى لم تكن لها قوة بالقتال فقامت بين الملوك والجبابرة فدعوا إلى دين ا ودين عيسى ابن مريم فقتلت وقطعت بالمناشير وحرقت بالنيران فصبرت ونجت ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوة بالقتال ولم تطق القيام بالقسط فلحقت بالجبال فتعبدت وترهبت وهم الذين ذكر ا تعالى : { ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم }] .

وقد رواه ابن جرير بلفظ آخر من طريق أخرى فقال : حدثنا يحيى بن أبي طالب حدثنا داود بن المحبر حدثنا الصعق بن حزن حدثنا عقيل الجعدي عن أبي إسحاق الهمداني عن سويد بن غفلة عن عبد ا بن مسعود قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [اختلف من كان قبلنا

على ثلاث وسبعين فرقة نجا منهم ثلاث وهلك سائرهم] وذكر نحو ما تقدم وفيه [{ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم } هم الذين آمنوا بي وصدقوني { وكثير منهم فاسقون } وهم الذين كذبوني وخالفوني] ولا يقدح في هذه المتابعة لحال داود بن المحبر فإنه أحد الوضاعين للحديث ولكن قد أسنده أبو يعلى عن شيبان بن فروخ عن الصعق بن حزن به مثل ذلك فقوي الحديث من هذا الوجه .

وقال ابن جرير وأبو عبد الرحمن النسائي واللفظ له : أخبرنا الحسين بن حريث حدثنا الفضل بن موسى عن سفيان بن سعيد عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس Bهما قال : كان ملوك بعد عيسى عليه السلام بدلت التوراة والإنجيل فكان منهم مؤمنون يقرأون التوراة والإنجيل فقيل لملوكهم ما نجد شيئا أشد من شتم يشتموناه هؤلاء إنهم يقرأون { ومن لم يحكم بما أنزل ا فأولئك هم الكافرون } هذه الايات مع ما يعيبوننا به من أعمالنا في قراءتهم فادعهم فليقرأوا كما نقرأ وليؤمنوا كما آمنا فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منها فقالوا : ما تريدون إلى ذلك دعونا فقالت طائفة منهم : ابنوا لنا أسطوانة ثم ارفعونا إليها ثم أعطونا شيئا نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نرد عليكم وقالت طائفة : دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا وقالت طائفة : ابنوا لنا دورا في الفيافي ونحتفر الابار ونحرث البقول فلا نرد عليكم ولانمر بكم وليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم ففعلوا ذلك فأنزل ا تعالى : { ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان ا فما رعوها حق رعايتها } .

والاخرون قالوا : نتعبد كما تعبد فلان ونسيح كما ساح فلان ونتخذ دورا كما اتخذ فلان وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم فلما بعث ا النبي صلى ا عليه وسلّم ولم يبق إلا القليل انحط منهم رجل من صومعته وجاء سائح من سياحته وصاحب الدير من ديره فآمنوا به وصدقوه فقال ا D : { يا أيها الذين آمنوا اتقوا ا وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته } أجرين بإيمانهم بعيسى ابن مريم وتصديقهم بالتوراة والإنجيل وبإيمانهم بمحمد صلى ا عليه وسلّم وتصديقهم قال { ويجعل لكم نورا تمشون به } القرآن واتباعهم النبي صلى ا عليه وسلّم قال : { لئلا يعلم أهل الكتاب } الذين يتشبهون بكم { ألا يقدرون على شيء من فضل ا وأن الفضل بيد ا يؤتيه من يشاء وا ذو الفضل العظيم } هذا السياق فيه غرابة وسيأتي تفسير هاتين الايتين على غير هذا وا أعلم .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا أحمد بن عيسى حدثنا عبد ا بن وهب حدثني سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء أن سهل بن أبي أمامة حدثه أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك بالمدينة زمان عمر بن عبد العزيز وهو أمير وهو يصلي صلاة خفيفة كأنها صلاة المسافر

أو قريبا منها فلما سلم قال : يرحمك ا أرأيت هذه الصلاة المكتوبة أم شيء تنفلته ؟ قال : إنها المكتوبة وإنها صلاة رسول ا صلى ا عليه وسلّم ما أخطأت إلا شيئا سهوت عنه إن رسول ا صلى ا عليه وسلّم كان يقول : [لا تشددوا على أنفسكم فيشدد ا عليكم فإن قوما شددوا على أنفسهم فشدد ا عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم] ثم غدوا من الغد فقالوا : نركب فننظر ونعتبر قال : نعم فركبوا جميعا فإذا هم بديار قفر قد باد أهلها وانقرضوا وفنوا خاوية على عروشها فقالوا : أتعرف هذه الديار ؟ قال : ما أعرفني بها وبأهلها هؤلاء أهل الديار أهلكهم البغي والحسد إن الحسد يطفىء نور الحسنات والبغي يصدق ذلك أو يكذبه والعين تزني والكف تزني والقدم والجسد واللسان والفرج يصدق ذلك أو يكذبه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعمر حدثنا عبد ا أخبرنا سفيان عن زيد العمي عن أبي إياس عن أنس بن مالك أن النبي صلى ا عليه وسلّم قال : [لكل نبي رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل ا D] ورواه الحافظ أبو يعلى عن عبد ا بن محمد بن أسماء عن عبد ا بن المبارك به ولفظه [لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل ا] وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين ـ هو ابن محمد ـ حدثنا ابن عياش يعني إسماعيل عن الحجاج بن مروان الكلاعي وعقيل بن مدرك السلمي عن أبي سعيد الخدري Bه أن رجلا جاءه فقال : أوصني فقال : سألت عما سألت عنه رسول ا صلى ا عليه وسلّم من قبلك أوصيك بتقوى ا فإنه رأس كل شيء وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام وعليك بذكر ا وتلاوة القرآن فإنه روحك في السماء وذكرك في الأرض تفرد به أحمد وا أعلم